زوربا الراقص والمطرب والمحارب

مطلع الشهر الحالي، رحل الموسيقي اليوناني الأشهر ميكيس ثيودوراكيس، تاركاً سيرة غنية ومتناقضة من النضالات السياسية والمقطوعات الموسيقية، التي لا تزال حية حتى اليوم

ميكيس ثيودوراكيس في باريس عام 1970 (بر تران لافوريه/Getty)

ميكيس ثيودوراكيس

علي موره لي

إبّان سنوات الحكم العسكري في اليونان (1967 ـ 1974) كان المنفيون يتداولون نكتة لا تزال شهيرة حتى اليوم. تقول النكتة إن أحد المارة سمع شرطياً يدندن وهو يخطو لحناً معروفاً. فسأله العابر: إني لأعجب يا حضرة الضابط كيف لك أن تردد لحناً للمؤلف ميكيس ثيودوراكيس. فما كان من الضابط إلا اعتقال المار المسكين، بتهمة الاستماع إلى موسيقى محظورة. للوهلة الأولى يبدو مستغرباً، لا بل عجيباً كيف يمكن لسلطات بهذا القدر من البطش والقوة أن تشعر بتهديد من فنان موسيقيّ جُلّ ما يقوم به هو إما العزف على آلة، أو تأليف مقطوعة أو تلحين أغنية. إلا أن عبقرية موسيقية كعبقرية ميكيس ثيودوراكيس (1925 ـ 2021)، الذي رحل في الثاني من الشهر الحالي، حين تُزهر في مجتمع حيّ عريق كالمجتمع اليوناني، مؤمنٌ بأنه الدِّيمقراطية الأولى في التاريخ، فلسوف يلتف حولها الناس بالتأكيد. فتصبح بالفن الرفيع وحده قادرة على هزّ عروش الحُكام وقض مضاجعهم.

تختلف سيرة ثيودوراكيس عن سِيَر معظم الموسيقيين. فخلال الحرب العالمية الثانية، انضم الفنان الشاب إلى القتال ضد الاحتلال النازي. بعد انتهاء الحرب، وُضع على لوائح أسماء من انخرطوا في المقاومة، إلى جانب مجموعة من الشيوعيين، وجرى اقتياده إلى أحد معسكرات الاعتقال سيئة السمعة في جزيرة ماركونيكوس.

هناك، تعرض لمختلف أنواع التعذيب، إلى أن أُصيب بمرض السلّ. بعد خروجه من المعتقل، تبنى ثيودوراكيس المبادئ الشيوعية. فأسس تنظيماً سياسياً شبابياً، مكّنه من ترشيح نفسه للانتخابات سنة 1964 ثم الفوز بها كمنافس منضو تحت التيار الشيوعي. عندما قاد الجنرالات انقلاباً عسكرياً، استولوا بموجبه على الحكم في اليونان وحلوا جميع الأحزاب وأنشأوا محاكم تعسفية، صدر أمرٌ باعتقاله، وحُظِر عزف، أو حتى سماع موسيقاه.

> في آخر حياته أخذ يميل نحو اليمين ويتبنّى مواقف محافظة

تنوعت أساليب ملاحقته من سجن ونفي، هو وعائلته، دامت ثلاث سنوات. عُذّب خلالها مراراً، ولأجله عَلت النداءات واشتدت المناشدات من كبار الشخصيات الأدبية والفنية والموسيقية حول العالم، إلى أن وافقت السلطات على إبعاده خارج البلاد. فذهب ليُقيم مع أسرته في العاصمة الفرنسية باريس.

من القارة الأوروبية وإلى جميع أنحاء العالم، قاد ثيودوراكيس حملة موسيقية دؤوبة لكسب الدعم وحشد التأييد في سبيل إسقاط حكم العسكر وإعادة إرساء النظام الديمقراطي في البلاد. الأمر الذي تم أخيراً سنة 1974 ليُكتب لليونان دستورٌ جديدٌ وتدخل المجموعة الأوروبية. فيعود الموسيقي المقاوم إلى الوطن متابعاً العمل فيه وفي سبيله، كمؤلف وملحن وقائد أوركسترا، وعضو في البرلمان لعقدين من الزمان.

أما موسيقاه، فتتناهى بعيدةً كل البعد عن النضالات المريرة التي خاضها بداية كمقاوم وناشط في غمرة مناهضته الفاشية ثم الديكتاتورية، ولاحقاً في معترك السياسة اليونانية وتذبذباتها الحزبية وحساباتها الواقعية والبراغماتية المعقدة في علاقتها بالقارة الأوروبية والعالم. إذ ظلت النزعة الغنائية المتوسطية المشرقة ومن تحتها المديات المقامية الدافئة الوادعة البصمة الخاصة لجميع أعماله، سواءً في الموسيقى الصرفة أو تلك المصاحبة للأفلام السينمائية. ولقد عبّر بنفسه عن مدى إيمانه بالمنحى الغنائي والأسلوب المقامي في التأليف الموسيقي (الذي يعتمد التآلفات النغمية الطبيعية). وذلك في الحوار الذي أجراه معه المنتج والناقد الفني الأميركي بروس دافي سنة 1994 في مدينة شيكاغو الأميركية حين زارها المؤلف اليوناني. ففي نقد الأسلوب التجريدي اللامقامي الذي كان سائداً حينها بين أوساط المؤلفين الشباب وفي أعمالهم، يقول ثيودوراكيس: «صعبٌ أن أستسيغ ما يكتبه المؤلفون الشباب اليوم. بالنسبة لي، تبدو أعمالهم معقدة للغاية. إذ إن أسس الموسيقى في نظري هي الأغنية والرقصة، الإيقاع والانسجام (الهارموني) ولئن كانت تلك هي دعائم الموسيقى، فحري بالمؤلّف الموسيقي دوماً أن يرتكز عليها وينطلق منها. لا تهم الآلة أو التشكيلة الآلية التي كُتبت الموسيقى لأجلها، ما دامت الأغنية، والمقصود هنا هو الغنائية، هي معين إلهام كاتبها».

كالعديد من الشخصيات الفذّة عبر التاريخ، لم تجمع سيرة ميكيس ثيودوراكيس جميع التناقضات الممكنة فحسب، بل صالحت بينها وجعلتها تتكامل في شخصية فريدة خاضت معترك الحياة على جبهات مختلفة، دائماً على ذات الدرجة من الشغف والحماسة. أولها الفن والموسيقى.

كان على الطالب الشاب في العاصمة اليونانية أثينا أن يلج العالمية من بابها العالي آنذاك؛ العاصمة الفرنسية باريس، ليدرس عند أشهر مؤلفي عصره الفرنسي أوليفيه ميسيان 1908-1992، إذ درس العمارة الموسيقية الغربية من عصورها الوسطى، مروراً بالكلاسيكية والرومانسية ووصولاً إلى الحداثة. وفي ذات الوقت، ظل ثيودوراكيس متمسكاً بالروح البِكر للبحر المتوسط وفنونه الأولى.

في السياسة، قارع الفاشية وناهض الديكتاتورية المُنبثقة عنها، ليدفع في سبيل ذلك سجناً وعذاباً ونفياً. ناصر اليسار العالمي وانضوى تحت المظلة الفكرية والاجتماعية للشيوعية. في المقابل لُقّب بـ«الشيوعي الثري» بسبب جنيه المال الكثير لقاء كتابته موسيقى تصويرية لأفلام سينمائية لاقت نجاحاً ورواجاً تاريخياً. كفيلم «زوربا اليوناني» Zorba the Greek سنة 1964 إذ بات اللحن الذي وضعه ثيودوراكيس ورقص عليه كل من أنتوني كوين وآلان بيتس إلى الآن، واحداً من التنميطات السمعية التي تُمثّل اليونان في كلّ مكان.

إلّا أنّه في آخر حياته، مع أفول اليسار العالمي وصعود الهوياتية السياسية، أخذ يميل نحو اليمين ويتبنّى مواقف قومية محافظة، كردّة فعل إزاء المهانة التي تعرضت لها بلاده إثر الأزمة الاقتصادية التي أصابتها سنة 2009. تجمعٌ مدني أسسه، رافعاً شعار اللاسياسية، سمّاه «حركة الشعب المستقلة» هاجم من خلاله انصياع حكومة سيريتسا اليسارية لشروط الاتحاد الأوروبي وصندوق النقد الدولي المُذلة بشأن سداد الديون. كذلك، أطلق تصريحاً اعتبر مقدونيا جزءاً لا يتجزأ من اليونان، نال عليه ثناء واستحسان حزب «الفجر الذهبي» أشد تنظيمات اليمين تطرفاً وألد أعدائه السياسيين.

تأبين شعبي

اجتذبت مراسم التأبين التي أقيمت لميكيس ثيودوراكيس مسؤولين بارزين ومواطنين عاديين احتشدوا تحت رذاذ مطر خريفي خفيف خارج كاتدرائية في وسط أثينا. وقالت رئيسة اليونان كاترينا ساكيلاروبولو في رثائه بكاتدرائية متروبوليتان في أثينا: «سيظل دائما معنا، جذوره ستظل راسخة في الذاكرة الجمعية لأمتنا». وقال أحد حضور المراسم «لقد أبكى الناس بأغنياته، وموسيقاه للكفاح من أجل حياة أفضل».

أخبار

عادت فرقة «آبا» (الصورة) السويدية للمرة الأولى منذ نحو 40 عاماً إلى تصنيف الأغنيات المنفردة العشر الأولى في بريطانيا، مع أغنية من ألبومها الجديد «فويجدج». ودخلت أغنية «دونت شات مي داون» إلى المرتبة التاسعة في تصنيف الأغنيات.

فازت المغنية البريطانية أرلو باركس (الصورة) بجائزة «هيونداي ميركوري» الخميس، عن ألبومها الأول «كولابسد إن سانبيمز» خلال احتفال أقيم في لندن. كان الألبوم الأول للمغنية اللندنية قد صدر في يناير/كانون الثاني 2021.

بمناسبة مرور 50 عاماً على إطلاق نجم «البيتلز» الراحل جون لينون (الصورة) ويوكو أونو (زوجته) أغنية وألبوم «إيماجين» أو «تخيّل». وكُتبت بالأضواء كلمات الأغنية على معالم بارزة حول العالم لا سيما في باريس ولندن...

يقدم «مترو المدينة» في الحمرا، بيروت، السبت المقبل عرض «هزّ يا وزّ - المهرجان الشعبي الكبير للفرفشة» حيث يقدّم المغني فراس عنداري (الصورة) أبرز الأغاني الشعبية المصرية وغيرها. يفتح المسرح أبوابه عند الساعة 8:30 مساءً.

مساء الخميس المقبل، تقّدم ساقية الصاوي في الزمالك (القاهرة) عرض دمى متحركة، بعنوان «عرض عرائس محمد منير»، فيستعيد العرض أبرز أغاني محمد منير (الصورة) لكن من خلال مجموعة من العرائس أو الدمى المتحركة.

لوك هيمينغز
درجات جديدة من اللون الأسود

عمر بقبوق

قبل أيام قام المغني الأسترالي لوك هيمينغز بإصدار ألبوم حمل عنوان When Facing the Things We Turn Away From؛ المغني المعروف بكونه المغني الرئيسي والمؤلف في فرقة البوب روك 5 Seconds of Summer التي أسسها. يضم الألبوم الأول لهيمينغز 12 أغنية، سبق أن صدرت 3 منفردة منها تباعاً منذ مطلع العام الحالي.

عادة ما تتم الإشارة إلى المشاريع الفردية التي يصدرها أعضاء الفرق الشابة باعتبارها تجربة محفوفة بالمخاطر. إذ إن الاعتقاد بعدم قدرة هؤلاء الفنانين على الخروج من الأطر التي سبق أن وضعوا أنفسهم بها والميل للشك بقدرة الفرد بالتفوق على المجموعة، تجعل هذه التجارب الفنية أكثر قابلية للنقد وعدم التقبل.

ذلك ينطبق بالطبع على لوك هيمينغز، لذلك كانت الشكوك حول نجاح تجربته الفردية قائمة ومرفقة بالكثير من الأحكام المسبقة غير المتفائلة، لكن يبدو أن الفنان الأسترالي لم يخطُ خطوة غير محسوبة، إذ أثبت بألبومه الفردي الأول أن هناك جوانب فنية أخرى يمتلكها تستحق أن نتعرف عليها، وهي لا تشبه كثيراً ما يتوقعه جمهور 5 Seconds of Summer.

ربما تكون المرونة التي تتمتع بها فرقة 5 Seconds of Summer بالتنقل بين الأنماط الموسيقية وقدرتها على الاستلهام الدائم من فرق الروك الكلاسيكية لصناعة أسلوبها الخاص بالبوب روك، هي أمور توحي بأن لوك هيمينغز قادر على ابتكار أسلوب خاص بتجربته الفردية الأولى. لكن الأمر المثير في هذه التجربة أنها تبدو قد صنعت بوعي مختلف تماماً، ليعبر عن شخصية حالمة أكثر سوداوية من تلك التي عرفناها مع فرقته؛ هذه الشخصية التي يبرر هيمينغز وجودها بسبب العام الأسود الذي مر به والوقت الطويل الذي أتيح له خلال فترة الجائحة لإعادة التأمل بتفاصيل حياته والمسار الذي يسير عليه. فعلياً لم يختلف أسلوب صناعة الموسيقى كلياً، فلا يزال هيمينغز يعتمد على إعادة تركيب النغمات الوترية العنيفة في أغاني الروك الكلاسيكية التي يفككها، ليصنع منها لحنه الخاص؛ لكن هذه النغمات كانت تتحول في ما مضى إلى نغمات أكثر عصرية بالتلاعب بالسرعة وضربها بإيقاعات حيوية تحفز على الرقص. بينما تبدو قدرة هيمينغز في الألبوم الجديد لا تقتصر على هذا الأسلوب التلاعب، فهو قادر أيضاً على إعادة إنتاج اللحن ليغير أيضاً لون العاطفة فيه، وكأنه يدرك وجود درجات أخرى من السواد، لم تكتشفها أغاني الروك الأيقونية من قبل.

> لا يزال يعتمد على إعادة تركيب النغمات الوترية العنيفة

يفتتح هيمينغز الألبوم بأغنية Starting Line التي تبدو بداية غريبة بإيقاعها المترنح وكلماتها الخفيفة إلى حد العدم، يقول في مطلعها: «داخل وخارج التركيز، هناك الكثير من اللحظات التي أحتفظ بها، بعضها تنفعني لاجترار الألم، والبعض الآخر ينفع للخلود إلى النوم». هكذا إذاً يبدأ هيمينغز بمحاولة تفكيك الوعي واللاوعي مستهلكاً كل ما لديه في ذاكرته، ليبدأ برسم علاقة جديدة مع الذات من خلال جدولة ذكرياته وإطلاق أحكام قيمة عليها. بعض الذكريات تبدو مؤلمة، كما هو الحال في أغنية Mum، التي تسيطر عليها نبرة من الأسف والتأنيب الذاتي الناجم عن الانقطاع، ولكن هذه الذكريات أيضاً سيتم تحليلها لاستخراج الشعرية العميقة منها بعد رمي الكلمات الكليشيه السهلة، فيرد بها: «أمي، أنا آسف لأنني مازلت أسقط. إنني أحتفظ بكل الأحلام وكأنها هدايا تذكارية. هناك صوت يرن في أذني، هل تسمعينه؟ إنه عالق برأسي وأنا أحاول أن أقوم بإغلاقه. أنا ثقيل جداً، أقفز في محيطي. ألا يمكنك أن تشاهديني وأنا أغرق؟ أحب الخوف من السقوط».

كانت الشكوك حول نجاح تجربته الفردية قائمة (داريث ماكولستر/Getty)